سمفونية مكتوبة

إلى روحها

بقلم الدكتور شكري فيصل

١ ـ حياة

كانت كشعلة متقدة من نشاط مجنح .. كوكبة عزم لا يني ولا يتوقف .. كانت لها حدة سيف مصقول في يد بطل ، واندفاعة فدائي في معركة وجود .. وكان لها ـ الى ذلك ـ قلب كبير كبير ، يتسع للناس مرة اذا أصابوا ، ومرات اذا هم أخطأوا .. ما عرفت الحياة الا خدمة للذين يعانون الحياة ، وما أدركت منها الا لذة الغلبة على مصاعبها .. فاذا جاء ، بعد الغلبة ، وقت الراحة آثرت غيرها بالراحة .. لان ذاك كان ايمانها تعبر عنه في بساطة ويسر : انما يسخر الله الناس للناس حتى يستمر الوجود على هذا الكوكب ، فيا طوبى للذين يعملون العمل الصالح .. وكنت أسمعها منها وكأنها قلب يتفتح عن نبعة حياة متفائلة ، جادة .

من هنا كان أكثر الذين أحبتهم وانحنت تحدب عليهم في عطف هاتان الطائفتان اللتان تقفان على طرفي الحياة : الاطفال الذين يقبلون عليها ، والمسنون الذين ينصرفون عنها .. وكأنما كان لها جملة من قلوب وهبتها كلها ، حتى قلبها لم تحتفظ به .. ما أحلى ما كنا نتحلق حولها نحن الصغار ، وما أحلى ما كان يتعلق بها المسنون في الاسرة والمتخطون عتبة الحياة الى عتبة القبر .

في النهار كانت تسعى بين الغرفة والغرفة في البيت .. يد تهيىء الطعام ، ويد تمتد الى طفل .. نظرة هنا بالعطف ونظرة هناك بالمودة .. ثم تجاوز البيت الى بيوت الجارات وذوات القربى لا تنفك سائلة مطمئنة .. حتى يهمس في أذنها صوت أبنائها تحس معه اقتراب عودتهم الى الدار فتعود لهم .. على ساعديها تتراقص نغمة حياة ، وعلى شفاهها تمتمات من سورة تقرأها ان نشطت الى تلاوة ، أو دندنات اذا نشطت الى ترجيع ..

في أذني ، يا غالية ، هذا الصوت الدافىء بالتقوى ، المتموج بالحنان .. في أذني لن يغادرني .. لانه نسج فضائي الداخلي العميق ...

أكان لصقيع التراب أن يمتص دفء هذا الصوت ؟!.. ما كان له ما كان .. والويل للتراب الذي يخفي ما يخفي ، ثم يعلن ما يعلن ، كأنما فيه هاتان الخميرتان المتضادتان : خميرة الموت وخميرة الحياة .

في المساء كان فرسان المستقبل وصبایاه على ذراعيها .. باقة من بنين وبنات كنا على ساعديها وكانت في قلوبنا .. تعد لنا الطعام عندما يكون الطعام ، وتبسط لنا الفراش حين يكون النوم ، وتصرفنا الى الدراسة بعد أن تعد لنا « منقل » الفحم : كل ما عرفت طفولتنا من دفء .. وتلوب بيننا بالقبلة تطبعها على الجبين ، واليد تربت بها على الكتف ، والشفاه تنبثق عنها الدعوات .. فاذا صادفت خلاء من وقت انصرفت كذلك تعمل ، تعد العجين .. فما عرفنا خبز السوق آنذاك .. وهل أنسى صورتها اذ تعده .. تلوشه بالماء حتى يخالط الماء كل ذرة طحين ، ثم تظل تعركه لا ينال منها الجهد أو تبلغ منه الغاية .. ثم تدفع به الى ركن الغرفة تغطيه في انتظار أن يحمله واحد منا الى فرن الحي مع شعاعات الشمس الاولى .. أفتغيب هذه الصورة عن عيني .. أتغيب هذه الحياة المليئة ويتسع لها قبر ضيق ؟ يا ما أقسى التراب الذي يحملنا حينا ثم يحمل غيرنا وغيرنا فيما بقي من أحايين حتى يرث الله الارض ومن عليها ..

وفي الليل .. ما كان لها أن تنام .. كانت حارسة القناديل الزهر التي تتفتح للحياة .. كانت تطفىء كل ضوء لتبقى هي على الضوء الخافت تراقب الشموع الصغيرة أن تلم بها رياح .. تخالس النوم مخالسة ، ولكنها لا تترك له أن يغلب عليها .. انما هي ملاك السماء الذي يرعى الاملاك الطاهرة الناشئة على طريق الزمن .. وعين السماء لا تنام .. فكيف اذن .. كيف ، أيتها الغالية ، طوى الموت جفنيك على الاحلام التي تحققت والاحلام التي لم تتحقق ؟.. ما غار نورهما ، يا غالية ، ففي نورهما طريقك الى جنة الخلد ، جنة السماء التي منها جئت واليها تعودين .

٢ ـ مرض

وتتعاقب بك الايام ، يا غالية ، تعملين تعملين .. الرضيع طفل ، والطفل فتى ، والفتى رجل .. والطفلة عروس ، والعروس أم ، ومن الام نجوم أخرى يخفق ضوؤها في الوجود .. وأنت من كل ذلك نبعته التي لا تني تتدفق بالحب ، وهالته التي تترقرق بالحنان .

وينال منك الجهد .. ولكنك لا تأبهين له .. وتتساقط من هذه السرحة الباسقة التي عاش كل هؤلاء في فيئها الندي ، أوراق .. ولكنك تمضين في غير جزع وكأنك تقولين : ما يضير الشجرة الضخمة أن يسقط منها أوراق ؟

ولكن الظفر المحموم الذي امتد الى هذا الحوض الطاهر النقي يمتد مرة أخرى .. غمس طرفا من اصبع ، ثم جاء يغمس أصبعه كله .. لقد آلت النسمات التي هزت ، في مثل المداعبة ، أطراف الشجرة ريحا عاتية تريد أن تهز الجذع ، أن تقتلعه ..

وبين قسوة الريح وصلابة الجذع كانت هذه المعركة التي كنا نرقب في حذر حينا ، ثم في اشفاق حينا ، ثم في استسلام قلق آخر الاحايين .

كانت الريح تنخر صدرها .. يا بنفسي هذا الصدر الذي كان كنزا من العطف والمودات .. ولكنها احتملت ذلك ، بادىء الامر ، في صبر لا يخالطه جزع ، وفي ارادة لا ينتصر عليها القهر ، وفي رضى داخلي عميق .. وظلت تتحرك حركتها الدائمة .. ظلت تعمل كل ما في وسعها أن تعمل : واقفة ان قدرت على الوقوف ، وجالسة ان عجزت عن أن تقف .

وتمضي معركة الحياة الآفلة والموت المقبل .. الحياة التي تولي والموت الذي يتقدم .. وتحاول أن تسيطر على الارض الحرام بينهما جهود طبيب انسان وفي .. يدفع الموت ويدافع عن الحياة بكل ما أوتي من علم وبراعة ودواء ..

ولكن الارض الحرام الى ضيق ، فالصفرة الشاحبة التي كانت تخالط الوجه الابيض النقي عادت تغالبه ثم أخذت تغلب عليه لتسكن في الاسرة التي كانت متألقة برودة الرماد ولونه .

ويذبل الساعدان .. وتدب من فوقهما خيالات متراكمة متزاحمة من الحيوات التي نشأت عليهما واغتذت منهما ونعمت بدفئهما .. وتأخذ تهدأ حركة الحياة في هذا الصدر الذي وهب لنا الحياة .

وناخذ نجتمع اليها مع الصبح والظهيرة ، ومع المساء والليل ، ومع الفجر والضحى ، ونجتمع حولها كأنما نريد أن لا ندع للسهم

المصوب طريقا ، ان ينفذ اليها ... الذين حملهم ساعداهـــا يمرغون شفاههم ووجوههم بها .. والذين سمعوا حكاياتها ينثرون على سمعهـا حكايات من أعمق أعماق الامل الذي استنزف .. والذين غنت لهم في المهد كانوا يغنون لها أعذب الحديث ويعيدون عليها صورا من الماضي.. لعل هناك بقايا من دفقة الحياة في الماضي تقوى على صد رياح المـوت الذي أوشك أن يقتلع الخيام ..

٣ ــ موت

... وانشقت السماء لتستقبل وجها ملائكيا كانت أرسلته الـى الارض على صيغة انسان .. وألقي في روعنا هاتف علوي يؤدي فـي ترنيل بارع وكأنه صوت يلف الارض ، يحتويها .. سمعنا منه :

ولمن خاف مقام ربه جنتان
* فبأي آلاء ربكما تكذبان
* ذواتـــا أفنـــان
* فبأي آلاء ربكما تكذبان
* فيهما عينـان تجريـان
* فبأي آلاء ربكما تكذبان
* فيهما من كل فاكهة زوجان
* فبأي آلاء ربكما تكذبان
* هل جزاء الاحسان الا الاحسان .

أكذلك أنت ، يا غالية ، روح ضاحكة مستبشرة في السمـاء ، وجسد هامد بارد على الارض ؟

أكذلك ، يا غالية ، تكتمل دورة الحياة ويلتقي طرفاها !!.. حلم اذن كان هذا الزمن الضئيل النحيل الذي وصل بين طرفي الدائرة .. تجربة من هذه التجارب التي كتبت على الناس اسمها الحياة الدنيا ، وثمرتها هناك في الحياة الاخرى .

٤ ــ وماذا ؟

وأعود .. أطوف بالبيت على مثل ما كنت أطوف .. أصعد هذه السلالم القصيرة ، وأضرب الباب الضربات التـي عودتها وتعودتها .. ولكن البيـــت لا يجيب ... وأنتظر لعلها تصلي كما كانت تصلي .. ولكن أحدا لا يجيب .. وأدق الباب هذه المرة بجبهتي .. ولكن البيت لا يجيب لان الموت حق .. وانما تجيب الـــدموع الغزار التي تغطـي طريقـــي .

يا ويلي .. واذن فلن ينفتح أمامي هذا الباب مرة أخرى .. لـن ينفرج عن هذه الانسانة الملاك تستقبلني .. تطبع على خدي قبلتهـــا ، وأنحني على يديها أقبلهما .. لن تمتد يدها تمسح وجهي وتقول هي ، وهي تلمح اعيائي ، في حب وحنان وبشيء من تشـريب خفيف : كيف الاولاد .. هل جلست اليهم .. ولاقول لها في تحبب وشيء من اعتذار ضعيف : ولكنك علمتني ان الحياة عمل ، وانما نحن فيها لكي نعمل .

أصحيح ، أيتها الغالية ، اني لن أرى الوجه ، ولن أسمع الصوت.. أصحيح أنك ارتحلت من دنيانا .. الى دنياهم ؟

احملي اليهم اذن ، يا غالية ، جملة من حياة جماعتنا الصغيـرة .. اننا على العهد .. أما عن حياة الجماعة الكبيرة فحاذري أن تقصي عليهم طرفا منها .. لا خوف المراقبة ، ولكن لانها عليهم وعلينا أشـد من الموت ..

الجزائر

شكري فيصل
كلية الآداب ــ جامعة الجزائر

دار الآداب تقدم

قصّة المقاومة الفيتنامية

كما يرويها أبطالها

يعتبر نضال الشعب الفيتنامي لتحريـر ارضه من اطول ما عرف التاريخ الحديث من مقاومة وصمود.
وهذا الكتاب الهام الذي نقدمه للقراء العرب ، في هذه الفترة التي تحتشد فيها الطاقات العربية كلها لمقاومة العدوان الصهيوني وتحرير الارض العربية في فلسطين ، يحمل مثالا وعبرة وفائدة عظيمة ، لا سيما وان مؤلفيه هم انفسهم من ابطال المقاومة الفيتنامية على راسهم الجنرال فو نيغوين جياب قائد المقاومة الفيتنامية سابقا ووزير الدفاع في فيتنام حاليا . والمؤلفون يروون باسلوب شيق طريف ذكريات اعمالهـم السياسية والحربية في سايغون وهانوي واعوام الاسر والسجن والتعذيب ، والاحتلال الياباني وقيام حروب العصابات في حقول الارز والغابات الكثيفة ، حتى تعبئة الشعب كله في ربيع عام ١٩٤٥ وانشاء جمهورية فيتنام الديمقراطية في هانوي .
وخلال هذه القصة يبرز وجه مدهش عجيب : هو وجه ذلك المناضل الشاب ، والمثقـف الانساني ، والثائر الذي لا يلين : « العم هو » الذي سيصبح فيما بعد الرئيس هو شي منه ...
والفصل الاخير في الكتاب يتحدث عن المقاومة البطولية الرائعة التي ما يزال شعب الفيتنام يخوضها بقيادة جبهة التحرير الوطنية حتى ايامنا هذه ضد الاحتلال الاميركي وعملائه في فيتنام الجنوبية .

الثمن ٣٠٠ ق. ل

صدر حديثا